

الأمر بتقوى الله

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [آل عمران: ١٠٢]، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: ٧٠]، [٧١].

أما بعد.

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فإن من نعم الله تعالى على عباده أنه أنزل عليهم لِبَاسَيْنِ: لباساً ظاهراً يُورِي العورة ويستُرُّها، ولباساً باطناً من التقوى، يُجَمِّلُ العبد ويستره، فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها. قال سبحانه: (يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) [الأعراف: ٢٦]؛ فجمع بين الزينتين: زينة البدن باللباس، وزينة القلب بالتقوى؛ زينة الظاهر والباطن، وجمال الظاهر والباطن.

فالتقوى زينة لبطن الإنسان كما أن اللباس زينة لظاهره، يقول ابن القيم رحمه الله: ولحبه سبحانه للجمال أنزل على عباده لباساً وزينةً تُجَمِّلُ ظواهرهم، وتقوى تُجَمِّلُ بواطنهم، وأخبر أن لباس التقوى خير اللباسين.

والعبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهيمته لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح. قال تعالى: (ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) [الحج: ٣٢]. وقال: (لَنْ يَنَالَ اللَّهُ خُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) [الحج: ٣٧]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "التقوى ها هنا" وأشار إلى صدره.

وحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمره الله به إيمانًا بالأمر، وتصديقًا بموعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالنهاي، وخوفًا من وعيده. كما قال طلق بن حبيب: "إذا وقعت الفتنة فادفعوها بالتقوى" قالوا: وما التقوى؟ قال: "أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله".

وهذه من أحسن ما قيل في حد التقوى، فإن كل عمل لا بد له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعةً وقربةً حتى يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض، لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمّدة والجاه وغير ذلك، بل لا بد أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله تعالى، وابتغاء مرضاته، وهو الاحتساب.

عباد الله.. التقوى هي الطريق الموصلة إلى البرّ، والوسيلة إليه، ولفظها يدل على هذا؛ فإنه دال على أنها من الوقاية، فإن المتقي قد جعل بينه وبين النار وقاية، فالوقاية من باب دفع الضرر، والبر من باب تحصيل النفع، فالتقوى كالحميّة، والبر كالعافية والصحة.

ولفظه "التقوى" عند أفرادها تقتضي فعل ما أمر الله تعالى به وترك ما نهى عنه، وعند اقترانها بفعل المأمور تقتضي الانتهاء عن المحذور.

وأصل التقوى معرفة ما يتقى ثم العمل به؛ فالواجب على كل عبد أن يبذل جهده في معرفة ما يتقيه مما أمره الله به ونهاه عنه، ثم يلتزم طاعة الله ورسوله.

وقد حكم الله حكمًا لا يبدل أبدًا أنّ العاقبة للتقوى، والعاقبة للمتقين فقال تعالى: (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) [القصص: ٨٣]، وقال: (وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) [طه: ١٣٢].

يقول ابن القيم رحمه الله: والمراد: العاقبة في الدنيا قبل الآخرة، لأنه ذكر ذلك عقيب قصة نوح، ونصره وصبره على قومه، فقال تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) [هود: ٤٩]، أي: عاقبة النصر لك ولمن معك، كما كانت لنوح عليه السلام ومن آمن معه.

وكذلك قوله: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) [طه: ١٣٢].

وقال تعالى: (وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا) [آل عمران: ١٢٠].

وقال: (بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّن الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) [آل عمران: ١٢٥].

وقال إخبارًا عن يوسف عليه السلام أنه نُصِرَ بتقواه وصبره، فقال: (أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) [يوسف: ٩٠].

وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) [الأنفال: ٢٩]، والفرقان: هو العز والنصر والنجاة والنور الذي يُفَرِّق بين الحق والباطل.

وقال تعالى: (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) [الطلاق: ٢، ٣].

وقد روى ابن ماجه وابن أبي الدنيا عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم».

أيها المسلمون.. التقوى ثلاث مراتب: الأولى: حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات. الثانية: حميتها عن المكروهات. الثالثة: الحمية عن الفضول وما لا يعنى. فالأولى تُعطي العبد حياته، والثانية تفيده صحته وقوته، والثالثة تُكسبه سروره وفرحه وبهجته.

قال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس. وقال بعض الصحابة رضي الله عنهم: كنا ندع سبعين بابًا من الحلال مخافة أن نقع في بابٍ من الحرام.

فيا مستفتيًا باب المعاشِ بغير مفتاح التقوى! كيف تُوسِع طريق الخطايا وتَشكو ضيق الرزق؟! ولو وَقَفْتَ عند مرادِ التقوى لم يُفْتِكَ مرادٌ.

عباد الله.. التقوى، وهي اجتناب ما هَى الله عنه، وهذا من أعظم أسباب التيسير، وضده من أسباب التعسير.

فالمُتَّقِي ميسرٌ عليه أمور دنياه وآخرته، وتارك التقوى وإن يُسِرَّت عليه بعضُ أمور دنياه تعسرٌ عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى. وأمَّا تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا؛ فلو اتَّقَى الله - تعالى - لكان تيسيرها عليه أتم، ولو قُدِّرَ أنَّها لم تُيسر له فقد يُيسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقوى، فإنَّ طيب العيش، ونعيم القلب، ولذَّة الروح وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجلُّ من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات، ونعيم أهل التقوى بالطاعات والقربات أعظم وأجلُّ.

وقال تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) [الطلاق: ٢] إلى قوله: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) [الطلاق: ٤]، فأخبر أنه يُيسر على المتَّقِي ما لا يُيسر على غيره.

وقال تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) [الطلاق: ٢، ٣] ، وهذا - أيضًا - تيسيرٌ عليه بتقواه.

وقال تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) [الطلاق: ٢، ٣] ، وهذا تيسيرٌ عليه بإزالة ما يحشاه، وإعطائه ما يحبُّه ويرضاه.

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) [الأنفال: ٢٩]، وهذا تيسيرٌ بالفرقان المتضمن للنجاة، والنصر، والعلم، والنور الفارق بين الحقِّ والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير.

وقال تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [آل عمران: ١٣٠]، والفلاح غاية اليسر، كما أنّ الشقاء غاية العسر.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

يقول الله تعالى: (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) [البقرة: ١٩٧]؛ فأمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم، ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة، وهو التقوى، فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يُبَلِّغُه إياه، فكذلك المسافر إلى الله والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى، فجمع بين الزادين.

والتفت علي رضي الله عنه إلى المقابر فقال: "يا أهل الغربية ويا أهل التربة أما الدُّور فسُكنت، وأما الأموال فُقسمت، وأما الأزواج فنُكحت، فهذا خبر ما عندنا، فهاتوا خبر ما عندكم". ثم التفت إلى أصحابه فقال: "أما لو أذن لهم لأخبروكم أن خير الزاد التقوى".

عباد الله.. إن ترك التقوى يجعل العبد غافلاً عن مصالح نفسه الدنيوية والأخروية، يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [الحشر: ١٨ - ١٩].

يقول ابن القيم: فأمر بتقواه، ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه، أي أنساه مصالحها، وما ينجيها من عذابه، وما يوجب له الحياة الأبدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمها، فأنساه ذلك كله جزاء لما نسيه من

عظمته وخوفه والقيام بأمره. فترى العاصي مهملاً لمصالح نفسه، مضيقاً لها، قد أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فرطاً. قد انفرطت عليه مصالح دينه وآخرته، وقد فرط في سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة إنما هي سحابة صيف أو خيال طيف. عباد الله.. إن الله تعالى أمركم بالصلاة على رسوله عقب إخباره بأنه وملائكته يصلون عليه فقال: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، البشير النذير، والسراج المنير، وارض اللهم عن الأربعة الخلفاء الراشدين المهديين: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعن بقية الصحابة، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعننا معهم بعفوك وكرمك وإحسانك يا أرحم الراحمين. اللهم أعز الإسلام والمسلمين، وأذل الشرك والمشركين، ودمر أعداء الدين، وانصر عبادك الموحدين.

اللهم ادفع عنا الغلاء والربا والزنا والزلازل والمحن وسوء الفتن ما ظهر منها وما بطن، عن بلدنا هذا خاصة، وعن سائر بلاد المسلمين عامّة يا رب العالمين. اللهم آمنا في أوطاننا، وأصلح واحفظ ولاية أمورنا. اللهم وفقهم لما فيه عز دينك ونصر أمة الإسلام. اللهم اجعلهم هداة مهتدين صالحين مُصلحين. اللهم ارزقهم البطانة الصالحة الناصحة لدينها وأمتها، وأبعد عنهم بطانة السوء يا حي يا قيوم.

اللهم اجعلنا من الصادقين وثبتنا على القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة. (رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ). عباد الله..

(إِنَّ اللَّهَ يُأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

واذكروا الله العظيم الجليل يذكركم، واشكروه على نعمه يزدكم، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون.



www.ibnalqayem.net